الجامعة المستنصرية
كلية التربية

صورة العَصَبية القبلية في شعر الطرّماح بن حكيم الطائي

للدكتور علي محمد الحبوبي
مدرس / قسم اللغة العربية

العصبية القبلية صولات وثارات ، وأحقاد وعداوات ، وسيوف مُرهفة ، تغدو على الرقاب وتروح ، فتطيح الرؤوس وتتناثر الأشلاء ، وتروى الغبراءُ بنجيع الدماء ، وتتقطع الوشائج والآرحام ، وتفصم عُرى المودَّة ، وتتمزق القبائل فتصبح جماعات موهونة القوى ، ساغبة ، لا تطعم إلاّ المكروه من الطعام ، ولا تلوكُ غير البغيض من الكلام .

ولما بزّغَتْ شمسُ الاسلام أطل على الدنيا والناس صَوتُ الحق قائلاً : ((ياأَيهُّا النَّاسُ إنّا خَلَقنْاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعلناكم شُعُوباً وقَبَائل لِتَعارفوا إنّ أارمكم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم إنّ اللهَ عليمٌ خبير)) [١] . ومن بعده رسوله الأمين محمد (ε) فقال : ((أيُّها الناس! إنَ ربكم واحد ، وإنَّ أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدمُ من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عَليمٌ خبير ، وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلاّ بالتقوى ..))[٢] .

وقرت نار العَصَبية وتلفعت بالرماد ، وآقتربت أنْ تصبح رماداً كلها ، حتى أدركها معاوية بن أبي سفيان – سَليلُ الآثام الجاهلية والأوضار الأموية بالحطب الجزل ، فآتقدتْ من جديد ، وآمتدت في الاتقاد صُعُداً ، وانتشرت فالتهمت من الحواضر والأمصار الشام والعراق وخراسان ، وهي تصيحُ هل من مزيد ، والقائمون عليها الخلفاءُ والولاةُ والشعراء ، والمحترقون بلظاها الناس الآخرون [٣] .

إنَّ معاوية هذا هو الذي أرسى دعائمها من جديد ، مُذْ أصهر الى اليمانية وآعتمد عليهم في صراعهِ مع الخليفة علي بن أبي طالب (υ) وظل على هذه الحال حتى بعد أنْ آلتْ إليه المقاليدُ وصار الخليفة الآمَر الناهي ، يُقّرِبُ اليمانية ، ويؤثرهم بالأموال ، ويمطرهم بالخلع والمناصب ، حتى شمخوا بآنافهم ، وتطاولوا على مَنْ سواهم عزّاً ونفوذاً ، والعدنانية ، وجلهم في الشام من القيسية ، مُبْعَدون ، محرومون من الحِبَاءِ حتى ذوت أقدارهم ، وهزلت حظوظهم[٤] .

لقد وقف القيسيون مناوئين لمعاوية ، جزاءً وفاقاً لما واجَهَهُمْ به أول مرة ، فلما هلكَ وبايَعَ الناسُ آبنه يزيد من بعده ، قالوا : ((واللهِ لا نبايعُ آبنَ الكلبية))[٥] ، على الرغم من أنهم كانوا دون الكلبية عَدَداً وعّدة[٦] ، وظلت النفوسُ تغلي فيها مراجلُ الحقد والعداوة والعصبية الغائرة حتى آنفجرت في معركة مرج راهط عام ٦٤ من الهجرة ، وطفح كل مافي الأفئدة ولكن رَجَحت كفة اليمانية على القيسية [٧] .

وظل اليمانية أبعدَ صوتاً ، وأقوى نفوذاً ، وأعرق للخلافةِ خدمة وجهاداً ، والقيسية أضعف صوتاً ، وأقل نفوذاً ، وأعرق للخلافةِ عداوة وحرباً ولاسيّما حين آزرَوا عبد الله بن الزبير ، فتحاما هم الخليفة عبد الملك بن مروان ، وأعرض عن سَرَاتهم وأعيانهم[٨].

واذا سكنت حّدة المعارك بين الفريقين ، فإنَّ ضرامَ العصبية لم يسكن ، وانما ظل يؤثر في سلوك الخلفاء ، ويُوّجه سياسة الدولة ، ولم ينجُ من سلطانهِ إلاّ الخليفة عمرُ بن عبد العزيز ، الذي سَمَا فوقه ، وتحاشى الدنو منه [٩] ، على حين هوى مَنْ جاء بعده فيه ، وتأرجح مَوْهوناً مأخوذاً بتأثيره على غرارِ أسلافه ، فهذا هشامُ بن عبد الملك قد القى بنفسهِ في أحضان اليمانية ، فقرَّب اليه خالد بن عبد الله القسريّ وخصَّه بولاية العراق مطلع عام ١٠٥ من الهجرة ، فتطاول قومُهُ اليمانية بأعناقهم بفضل مساعي زعيمهم وتمادوا حتى أزعجوا الخليفة نفسه فتنكر لخالد فأقصاه عام ١٢٠ من الهجرة وأقصى قومُهُ معه وتواروا عن الأنظار ، يَجْترون الذكريات ويتنسمون الآمال [١٠] ، وتقدم القيسية وأعتصب بهم مروان ابن محمد ، وركن اليهم [١١] ، لكن مناوئيهم اليمانية ظلوا يتحينون الفرص للانتقام والعودة ، وجدُّوا في ذلك حتى آجتثوا الخلافة الاموية نفسها من قواعدها ، وأقاموا خلافة أخرى في أرض جديدة[١٢] .

هذه هي مأثرة معاوية ، كيد وحقد ، وضغينة وشنآن ، وعَصَبية مكروهة ، ثم عاقبة مُرْوية ، لفت القبائل والناس الآخرين في سورتها العاصفة .

امتحن العصر الأمويّ – إذَنْ – بالعَصَبية القبلية ، وقد آشرأبت بعنقها من جديد ، وأدلعت لسانها تفح فحيحَ الأفعى ، وأعدت صوارمها ورماحها ونبالها ، وتهيأت للنزال والقتال ، وساقت الناسَ اليها والقبائل طراً ، وأهابت بالشعراء أنْ يخفّوا اليها مُسْرعين ، ومن بينهم الطرّماح الطائي القحطاني ، مادام الواقع يغريهم ، والالتزام يُزّين لهم ، والأواصرُ واللّحم تقض مضاجعهم ، وتثير أحاسيسهم ومشاعرهم ، فالعدنانيَ منهم يذود عن العدنانيين ، والقحطاني منهم يذود عن القحطانيين ، ودنيا الاثنين إرعاد وإزباد، وتهديدٌ ووعيد ، وفخر وهجاء ، مادعا الواجبُ وقدَّستهُ الدماءُ والأعراق .

إنّ فحوى هذه العصبية – سواء في العصر الجاهلي أمْ في العصر الأمويّ- الانتصارُ للقبيلة ، والتاكيد على وحدتها ، وبيان مكانتها واعتبارها بين القبائل الأخرى في اسلوب الفخر والهجاء ، عند الهجوم والدفاع .

*** *** ***

وأين الطرّماح من هذا كله ؟

الطرّماح من طئ ، القبيلة التي آستقرت في الجبلين ((أجأ وسلمى)) وماحولهما منذ أحقابٍ بعيدةٍ ، وبلغت العراق والشام و آستوطن قسم منها فيهما ، وآنحدَرَ من فرعيها

الغوث وجديلة ، بطون كثيرة ، فمن الغوث ثعل ونبهان وبَوْلان وهَناء وَسَلامان ، ومن جديلة بنو ثعلبة وبطون أخرى وأفخاذ[١٣] . وأنجبت رجالاً عُرِفتْ بهم ، وسمقت بآثارهم في الجاهلية والاسلام .

تحدث الطرّماح في الأصل الأول وهو قحطان فذكر علاقته به ومهمته حياله، فقال[١٤] :-

أُذبّبُ عن أحساب قحطان ، إنّني أنا آبنُ بني بطائحها حيث حَلَّتِ

وفي طئ ، القبيلة المنحدرة من قحطان قال[١٥] :-

ياطيء السَّهل والأجبالِ مُوعِدكمْ كالمبتغي الصَّيدِ في عِريّسةِ الأسَدِ

ومن طيء انحدر الفرعان : الغوث ، وجديلة ، فقال فيهما[١٦] :-

هَلم الى قضاة الغوث وآسالْ برهطك والبيانُ لدى القضاةِ
وحكمٍ من جديلة قيصريّ تُباعدُ في الحكومة أو يُوَاتي

والطرّماح من الغوث ، ثم من ثعل[١٧] ، وكما نوَّه بذلك في شعره قائلاً[١٨]:-

أنا الطرّماحُ ، فآسأل بي بني ثعل قومي ، إذا أختلط التّصديرُ بالحقبِ

فبنو ثعل قومُهُ الأدنون ، وأهلُهُ الأقربون ، وموطنُ فخره وزهوه ، واعتداده بأصولهِ وأعراقه .

وللطرّماح آباء وأجداد حَريُ أنْ يفخر بهم ، ويجاثي للخصومة من أجلهم ، منهم قيس بن جحدر – الجد الثالث له – الذي أسر ثم أطلق[١٩] ، وبقي حتى وفد الى رسول الله (ε) فأسلم على يديه[٢٠] .

والطرّماح عرف العراق ، بمصريه البصرة والكوفة [٢١] ، وخَبَر أحوالهما ، وأحوال الناس فيهما ، وآثر من رجالهما الكميت بن زيد الأسديّ ، فكانا ((لا يكادان يفترقان في حال من أحوالهما)) ، ((وكان الكميت عدنانياً عصبيّاً ، وكان الطرّماحُ قحطانياً عَصبيّاً))[٢٢] .

وعرف الطرّماح الفرزدق ، والفرزدقُ – كما شهدَ له جرير حين رثاه – [٢٣]:

فُجعنا بحمّال الديات آبنِ غالبٍ وَحَامي تميم عِرْضها والبَراحِمِ

فهو لسانُ تميم وَحَامي حماها ، والمُعبرّ عن مآثرها السابقة والحاضرة ، والمشيدُ ببطولات رجالها ومآثرهم ، وكان الطرّماح في الوقت نفسه يضمر الحقد لتميم لموقفها من الأزد ، فانبرى لشاعر تميم ، وراح يضربه وايّاها ضرباً متداركاً ويريش سهام الهجاء الى نحور أبنائها وسراتها وأعيانها وفي الطليعة منهم الفرزدق .

والدنيا – يومذاك – لحمتُها وسَدَاها العصبية القبلية .

لقد ابتلي العراق بالعَصَبية القبلية ، وتململ المصران – الكوفة والبصرة – غير مرةٍ، ابتغاء التحرر من رِبْقة الأصفاد المضربة وإنْ ضّمتْ اليها دواعي أخرى .

فالكوفة أطبقت على تأييد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكنديّ في ثورته العارمة سنة ٨٢ من الهجرة ، ضد الوالي الحجّاج بن يوسف الثقفيّ ثم الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي القرشيّ ، وسارت معه صابرة محتسبة وتجرَّعت الصاب والعلقم حتى الثمالة ، يحثها كرهها للسلطان المضريّ وتشوفها لسلطان قحطاني يلم شعتها ويُنْهضها من كبوتها ، ويَردُّ اليها شيئاً من مكانتها وثقتها بنفسها ووجودها ، وقد اتضح ذلك في قول أعشى هَمْدان [٢٤] :-

بجَحْفل جمّ شديد الإرنان فَقُلْ لحجّاج ولي الشيطان

يثبتْ لجمع مذ حج وهمدان فإنهم ساقوه كأسَ الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

وعندما كتب المهَّلب بن أبي صفرة الأزدي الى الحجّاج يخبره بالأمر : ((أما بعد ، فإنّ أهل العراق قد أقبلوا اليك وهم مثل السيل المنحدر من عل ، وليس شيء يرده حتى ينتهي الى قراره . وإنّ لأهل العراق شرّةً في أول مخرجهم ، وصبابةً الى أبنائهم ونسائهم ، فليس شيء يردُّهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ، ويشمُّوا أولادهم ، ثم واقفهُمْ عندها ، فإنَّ الله ناصْرك عليهم إن شاء الله)) ، فلما قرأ كتابه قال : ((فعل الله به وفعل ، لا والله مالي نظر ، ولكن لابن عمّه نصح))[٢٥] .

فقولا الأعشى والحجّاج تأكيد للعصبية ، و ٱعتراف بتطلع القحطانيين الى الحكم ورغبتهم في الخلاص من السلطان المضريّ العدناني، الممثل بالجبار العاتي الحجّاج، وبسيّده عبد الملك الذي يَمُّد لهُ في الغيّ مّداً،ويرضي جنونه وهيامه بالقتل والإسراف فيه.

ذاك ماكان من أمر العصبية القبلية في الكوفة ، أما في البصرة فكانت أعرق وأقوى وأضرى .

بدأت في خلافة علي بن أبي طالب (υ) عندما أرسل معاوية بن أبي سفيان ٱبنَ الحضرميّ الى البصرة سنة ٣٨ من الهجرة ليفسدها على الخليفة ، فنزل في بني تميم ، على حين نزل نائب الوالي زياد بن أبيه في الأزد ، وآضطرب الأمر وفزع القومُ الى السلاح حتى قدم جارية بن قدامة السعديّ موفداً من قبل الخليفة ، فسكن النائرة فسكنت، ماخلا ابن الحضريّ ومن التف حوله ، فأضرم النار في الدار التي ثووا فيها ، وآبَ آبنُ زياد الى عمله بمآثر الموفد والأزديين ، عند ذاك قال عمرو بن العرندس العودي مفتخراً[٢٦] :-

رَدَدْنا زياداً الى دَارِهِ وَجَارُ تميم دخاناً ذهَبْ
لحى الله قوماً شووا جارهم وللشاءِ بالدرهمين الشَّصَبْ

وعلا الازديون على التميميين ، ومشت العداوة بين الفريقين ، ثم عمقت حين ٱضطرب أمرُ الناس في البصرة غِبَّ هلاك يزيد بن معاوية عام ٦٤ من الهجرة ن وَسَاد الهرج والمرج ، وضعف سلطان الوالي عبيد الله بن زياد فعادر المصر ، وسلم المقاليد لزعيم الأزد مَسْعود بن عمرو ، فتضافر الأعداءُ فقتلوه ، وقامت الحربُ على ساق بين الأزد وتميم ، ثم تداعى القومُ الى الصلح ، ودفع دية القتيل بعشر ديات[٢٧] . وبقيت العداوة قائمة تنتظر من يثيرها ويأخذ بزمامها ، حتى تولى أمرها يزيد بن المهلب الأزدي عام ١٠٢ من الهجرة في خلافة يزيد بن عبد الملك .

كانت هذه الثورة على غرار ثورة عبد الرحمن بن الأشعث سَعَةً وآثاراً بعد أنْ تجمعَّت فيها الضغائن والأحقاد ، فانفجرت لا تلوي على شيء سوى الخلاص من القيود والأصفاد ، والانعتاق من ربقة الأمويين الجبارين .

من بوادر هذه الثورة ، ((إنّ الحجّاج لم يكن له حين فرغ من عبد الرحمن بن الأشعث همٌ إلاّ يزيد بن المهلب وأهل بيته – وقد كان الحجّاج أذلّ أهلَ العراق كلهم إلاّ يزيد وأهل بيته ومَنْ معهم من أهل المصرين بخراسان ، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمن بن محمد بالعراق غير يزيد بن المهلب – فأخذ الحجّاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خراسان ، فكان يبعث اليه ليأنيه ، فيعتل عليه بالعدوّ وحرب خراسان ، فمكث بذلك حتى اخر سلطان عبد الملك ...)) [٢٨] .

وكان الحجّاج يقول عن يزيد بن المهلب لما هرب منه : ((إنيّ لأظنه يُحدثُ نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث))[٢٩] .

قدم يزيد بن المهلب البصرة عام ١٠١ من الهجرة ، فتحاماه الناس ، وآستعد واليها عديّ بن أرطأة الفزاري لمواجهته ، فجمع له من أهل البصرة ، ((فبعث على كل خمس من أخماسها رجلاً ، فبعَث على خمس الأزد المغيرة بن زياد بن عمرو العنكيّ ، وبعث على خمس بني تميم مُحرز بن حمران السعديّ من بني منقر ، وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر بن مسمع من بني قيس بن ثعلبة ... فدعا نوح بن شيبان بن مالك بن مسمع فعقد له على بكر بن وائل ، ودَعا مالك بن المنذر بن الجارود فعقد له على عبد القيس ، ودعا عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشيّ فعقد له اهل العالية – والعالية قريش وكنانة والأزد وبجيله وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة ...))[٣٠] .

ومـاأنْ دخل يزيد بن المهلب البصرة حتى أخذ يَسْتميل الناس بالذهب والفضة ، فانضموا اليه ، ومنهم ربيعة وبقية تميم وقيس وناس بعد ناس ، ومنهم من أهل الشام ، ((وكان عديّ لايعطي إلاّ درهمين درهمين ، ويقول : لايحل لي أنْ أعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد عبد الملك ، ولكن تبلغوا بهذا حتى ياتي الأمرُ في ذلك))[٣١] . وقد استطاع يزيد بن المهلب أن يأخذ البصرة ويسجن واليها عديّاً ومن معه ، فلما انتهى الخبرُ الى الخليفة يزيد بن عبد الملك أرسل اليه العباس بن الوليد في أربعة آلاف فارس، ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك في جنود أهل الشام .

كان أول لقاء بين تميم والأزد في كرمان ، عندما خرج بنو تميم لاستقبال مدرك بن المهلب ودفع شره عنهم ، فسبقتهم الأزد الى مدرك فقالوا له : ((إنك أحبُّ الناس الينا ، وأعزهم علينا ، وقد خرج أخوك ونابذه ، فإنْ يظهره الله فانما ذلك لنا ، ونحن أسرع الناس اليكم أهل البيت وأحقه بذلك ، وإنْ تكن الأخرى فو الله مالك من أن تغشانا مايُعّرنا فيه من البلاء راحة)) ، فأنصرف عنهم [٣٢] .

إنّ هذا اللقاء وديّ بين تميم والأزد ، أرادت تميم أنْ تدفع الشر عنها ، وأرادت الأزدُ أن لا تعرض نفسها للشر ، وان كان الثائر من رجالها لأنها لا تأمن العواقب .

جرى اللقاء الأول بين العباس بن الوليد وبين عبد الملك بن المهلب في منطقة "سُوَرا " وقد سقط الى العباس ((ناسٌ من بني تميم وقيس ممن انهزم من يزيد بالبصرة، فكانت لهم جماعة حسنة مع العباس)) [٣٣] .

كثف جمعُ يزيد بن المهلب بما هبط عليه من الكوفة والجبال والثغور ، ومن الأزد ومذحج وأسد ، وكندة وربيعة ، وتميم وهمدان ، ولكن حلّت الهزيمة بهم بعد أن قتل قائدهم ، وتبدد شمله،وأحكمت الدولة الأموية قبضتها من جديد على البصرة وأهلها [٣٤].

إن العصبية القبلية لم تتضح معالمها مع يزيد بن المهلب على نحو بين ، فهنالك معه قبائل قحطانية وعدنانية ، تتثال عليه من كل مكان ، يجمعها الكره على سلطان الأمويين الجائر ، وان كانت فبيلته الأزد في المقدمة ، ولكن القبائل الاخرى صبرت معه وقاتلت حتى اخترمت المنون قائدها المُرجّى ..

كانت علاقة الطرّماح بقومه القحطانية سَبباً من أسباب أهتمامه بغرضي الفخر والهجاء في آن معاً ، على وفق ماتقتضيه العصبية القبلية وتلزم الآخذين بأسبابها ، والخاضعين لظروفها ودواعيها ، فالطرّماح في مجال الفخر مشدود الى إطراء محامد قومه ، والتنويه بمناقبهم ، وآثار رجالهم الغابرة والحاضرة ، ليقف الناس على خطرهم، فيحسب القومُ للطرّماح حساباً ، وفي ميدان الهجاء مُعرى برّد كيد الخصوم ، وخضدِ شوكتهم ، وقمع تطاولهم ، فلا تحدثهم أنفسهم بالنيل منهم والتحرش بهم .

وهذه السبيلُ مذهب الشعراء كلهم ، مذ ظهرت العصبية القبلية في العصر الجاهلي ، حتى ضربتْ أوتادها بقوة في العصر الأمويّ ، وخضع لها الجميع ، ومنهم الشعراء ، مدفوعين بمهمة التعبير عن حاجات قومهم ، وبيان مآثرهم ، والذّب عنهم ، والحملة على أعدائهم ، على وفق ماوهبوا من قدرة التعبير ، وتحملّوا أعباء المسؤولية .

أشاد الطرّماح بأمجاد قومه ، وأطرى أفعال الرجال ، فتغّنى بقبائل قحطان كلها ، وتلبّث طويلاً عند طيء والأزد ومذحج ، فنشر الصحائف الجاهلية ، وضمّ اليها الاسلامية وماحوتْ من وقائع وأحداث .

أما أهم ماضم فخره فهو المعاني العامة ، التي ليس فيها مايلفت النظر ، أو يدل على الجديد المبتكر ، كقوله [٣٥] :-

إنّنا مَعْشرُ ، شمائلنا الصّبـ ... رُ إذا الخوفُ مال بالأحْفاضِ
نُصُرٌ للذليل في ندوة الحيـ ... ـي ، مَرائيبُ للثأى المنُهْاض
لم يَفُتْنا بالوتر قومٌ ، وللضيـ ... ـم رجالٌ يرضون بالإغماضِ
فيهُمُ سطوة اذا الحلْمُ لم يُـ ... ـبْ ، وفيهم تجاوزٌ وتغاضي
مَن يرُم جمْعَهُم يجدهم مراجيـ ... ـحِ حُماةً للعُزّلِ الأحْراضِ
طيبي أنفسٍ ، اذا رهبوا الغا ... رة نمشي الى الحتُوف القواضي
فَسل الناسَ إنْ جهلت ، وإنْ شئْـ ... ـتِ قضى بيْننا وبينك قاضي
هل عدننا ظعينة تطلبُ العزّ ... من الناس في الخطوب المواضي
كم عدّوٍ لنا قراسيه العزِ ... نركنا لحماً على أوفاض

وجلبنا اليهُمُ الخيل فاقتيـ ... ـض حماهُم،والحربُ ذات اقتباضِ
بجلادٍ يفرى الشؤون وطعنٍ ... مثل إيزاغ شامدات المخاض
ذي فروغ ، يظل في زَيَدِ الجو ... فِ عليه كثامر الحُماض
نَقَبتْ عنهم الحروبُ، قذاقوا ... بأسَ مستأصل العدى مبتاضِ
كل مستأنس الى الموت ، قدخا ... ضَ اليه بالسيف كل مخاض
لابني يُحْمض العدو ، وذو الخُدّ ... ـة يُشفى صَداه بالإحماض
حين طابت شرائع الموت،والمو ... تُ مراراً يكون عَذْبَ الحياض
باللواتي لم يتركن عقاقاً ... والمذاكي ينهض أيّ انتهاض
تلك أحسابنا إذا ٱحتتن الخصـ ... ـلُ ، ومد المدى مدى الأعراض

إن الطرّماح من قوم شمائلهم الصّبر في المواطن العصيبة ، ونصرة الذليل في ندوة الحيّ ، وإصلاح الفساد ، وحماية الضعفاء ، وطلب الأوتار ، والسطوة ، والتجاوز والتغاضي عما يشين ، حُلماءُ شجعان لايبالون المنايا .

ثم سكت عند متعلقات الشجاعة الى هذا الحد ، أو لاحظ أنَّ زاده منها قد نفد فلم يُسعفه بالمزيد ، وكان مازال يروم المزيد ، فاحتال عليه بعرض صورةٍ مفصلةٍ لموقف من المواقف البطولية التي اشتهر بها قومه ، ساقها في أسلوب حواري بينه وبين رجل اعترض سبيله ، أو أنكر عليه هذا الفخر بقومه ، فالتفت اليه يقول له : إن كنت في ريب مما ذكرت أنفاً ، أو جهلت هذه الحقائق الناصعة التي عرف بها قومي فعليك بقاضٍ يحكم بيننا ، ويقطع فيما نحن فيه متنازعان ، ولكن الطرّماح لم ينتظر حكم القاضي ، بل أسرع يتحدث عن قومه كرة أخرى ، وماكانوا عليه من النعوت ، فهم أهل البأس والجرأة ، والحمية والغيرة والبطولة ، حين ينقضون على أعدائهم انقضاضاً ، ويتركون لحومهم قطعاً متناثرة ، وحماهم مستباحاً ، بضرب صادق ، وطعن نافذ ، ورغبةٍ عارمة الى القتال ، من دون ضعف أو خور ، حتى ينالوا غايتهم من أعدائهم ، ويحققوا مأربهم فيهم .

فالطرّماح لم يهتد الى شيء جديد ، ماخلا هذا العرض الشامل ، وهو الحديث عن الشجاعة بكل ألوانها وضروبها .

لقد بقيت الشجاعة مأثور خديثه ، والاعتداد بها غايته ومراده ، فقال[٣٦]:-

أسرناهم وأنعمنا عليهم ... وأسقينا دماءهُمُ الترابا
فما صبروا لبأسِ عند حربٍ ... ولا أدّوا لحسن يدٍ ثواباً

وقال [٣٧] :-

هُلّم إلى قضاة الغوث ، وآسأل برهطك ، والبيانُ لدى القضاة
هلمّ إلى آبن فروة أو سليطٍ وآل مُعرّض ، واترك شكاتي
أنخْ بفناء أشدق من عديّ ومن جَرْم ، وهم أهل التفاني
وحكم من جديله فيصريّ يباعدُ في الحكومة أو يواتي
يُربك هدى الطريق ، ولاتعنى وقد يشفي العمى خبرُ الهداة

أثار فخر الطرّماح بنفسه رجلاً ، هاله هذا الحديث والتمادي فيه ، أو اختلق رجلاً جعله سبيله الى الجديث عن نفسه ، وعن قومه ومالهم من مآثر . فدعاه أنْ يلم بقضاة الغوث ويسألهم فعندهم الخبر اليقين ، ويتحول الى ابن فروة ، أو سليط ، وآل مُعرّض، فكل هؤلاء أوعية مترعة بالآثار والأخبار ،ويدعهم الى الخطباء المفوهين من آل عديّ، ومن جرم ، وأهل الرأي والمشورة ، ومنهم الى رجال من جديلة ، العارفين بالأمور ، المبصرين بحقائق الأشياء .

فالحديث عن الغوث وجديلة وفروعهما ورجالهما ، ثم يطلب منه أن يقول :

وقلْ : أين الفوارس والدَّواهي ومُدَّعم الأمور المُضْلعاتِ؟
وأين ابن الذي لم يُزْر يوماً بمنصبهِ أقاويلُ الوشاةِ
ولم تبت الترابُ له شعاراً ولكنْ كان عيّاف التزّات
ولم ينفكَّ أصيدُ منْ بنيه لهم بُني الفعالُ مع البناةِ
وأين النازلون بكل ثغر ؟ وأين ذوو الوجوه الواضحات؟
وأين الوافدون إذا أقاموا وأين ذوو الرئاسة في الغزاة؟

أين الفوارسُ ؟ وأين الدواهي ؟ وأين حمالّو الأعباء الثقيلة ؟ وأين الأصيل النقيُّ أرومة وفعلاً ؟ وأين الذي لايبُيتُ على الثأر ؟ والمنجب الأنباء العريقين في الأفعال والسيادة ؟ وأين النازلون في المواضع المخيفة ؟ واين ذوو الوجوه البيض ؟ اين الوافدون ؟ وأين المتقدمون في الحرب ؟ فهو يطلبُ أنْ يثير هذه الأسئلة فعند قومه الجواب ، فهم الأبطالُ الشجعان ، والسادة القادة ، والمعرقون في النجار والأفعال .

هناك تنصُّ أمرَ أبيك حتى تبيَّن ماجهلت منْ الهنات
هناك ينُصنّا نفرُ بن قيس لآباءٍ كرام الأُمّهاتِ
لحُبيّ إنْ سألت وأمّ عمروٍ وزهْرة من عجائز مُنجبات

وفكهة غير مُخْلفةٍ وفترٍ بعولتها السّراة بنو السّراةِ
لكل أشمّ من أبناء نفرٍ عظيم الهمّ ، مضطلع العُداةِ
وقورٍ حين تختلف العوالي إلى النجداتِ قوّام السّناتِ
إلى الأبطال من سبَأ تنمتْ مَناسبُ منه غيرُ مقرزمات

انهم آباء كرامُ الآمهات ، مثل نفر بن قيس ، وأمهات منجبات ، مثل حُبّى ، وأم عمرو ، وزهرة ، وفكهة ، وفتر ، تحت أزواج سراة ، أعزة عظماء ، كبيري الهمة ، بعيدي الشأن ، شجعان ، يخوضون الوغى بروح وثابة . انهم معرفون في يمانيتهم ، نقيون في أواصرهم وأرحامهم .

ويتمادى منتفخ الأوداج في مدح عريض ، وثناء سامق ، بقومه وسلطانهم ، وغابرهم وحاضرهم ، فهم غايته العظمى ومراده .

ومع اهتمام الطرّماح بالقبائل اليمانية كلها ، إلاّ أنّه كان يخص قبائل طيء ومذحج والأزد بحديث كثير ، مثل قوله في طيء[٣٨] :-

بل أيّها الرجلُ المفاخرُ طيئاً أعزبتَ لبّك أيّما إعزابِ
إنّ العرارة والنبوح لطيء والعزّ عند تكامل الأحسابِ

وقوله [٣٩] :-

ياطيىء السّهل والأجبال مُوعدكم
كالمبتغي الصّيد في عريّسه الأسدِ

وذكر بَعضَ فروع طيء من ثعل وجديلة والغوث ورومان . كما في قوله [٤٠] :-

أنا الطرّماحُ ، فاسأل بي بني ثعل قومي إذا اختلط التّصديرُ بالحقبِ

ولما انتقل الى الحديث عن جدّه أبي حنبل ، وأبيه نفر ، اللذين هما من آبائه الكرام ، المعروفين بالرفعة والنقاء ، من ثعل وجديلة .

شم العرانين والأحساب من ثعل ومن جديلة ، ولا يسجدن للصُّلُبِ

وقوله [٤١] :-

فدىً لفوارس الحيين غوثٍ فرومان التلادُ مع الطّرافِ

ونوّة بدور قبيلتي مذحج والأزد في مقتل قتيبة بن مسلم الباهليّ بمرج الصّين [٤٢] :-

لولا فوارسُ مَذْحج ابنه مَذْحجٍ والأزد زُعزع وآستبيحَ العسكرُ

ويستمر ..

وتناقلت أزد العراقِ ومَذْحجٌ للموت ، يجمعها أبوها الأكبرُ

من مذحج والأزد حين تجمعّت للحرب ، زمزمة تغط وتهدرُ

واذا هجا قبيلة تميم جاء بقبيلة الأزد ، مفاخراً بها ، مُباهياً بأفعالها .

أما الجديدُ فهو الفخرُ بالمآثر الاسلامية ونصيب قومه منها ، من بلاء الأنصار أيام رسول الله (ε) وقتال المرتدين ، ونصرة الخليفة الأمويّ ، وتثبيت مركز الخلافة في دمشق ، فقال [٤٣] :-

في عزّنا انتصر النبيُّ محمدٌ وبنا تثبت في دمشق المنبرُ

وقال [٤٤] :-

بجيش من الأنصار لو قذفوا به شماريخ رضوى الشامخات لخرّت

إذا المنبر الغربي زعزع متنْه وطدنا له أركانه فاستقرّت

بهم بّيض الله الخلافة كلما رأوا نعلٌ صنديدٍ عن الحق زلت

بهم نصر الله النبيّ وأثبتت عُرى الحق في الاسلام حتى استمرت

وهم دمغوا بالحق أيام خالد شياطين أهل الشرك حتى آطمأنت

شياطين من قيس وخندق غرَّها من الله ماكانت سجاحُ تمنّت

وهو في هذا الجديد لم يأت بشيء جديد ، بل هو انعكاسٌ لنظرة الفخر المألوفة من الزهو والتعالي ، وسرد الآثار والأفعال ، فقومه موافقهم ناطقة عبر التاريخ الاسلامي ، وتعاقب حكامه ، من غير أنْ يتحدث عن القيم التي حملها هذا الجديد ، وبشرّ بها ، وبعد أثره في الاسلام والمسلمين .

اما الهجاءُ فقد أسهم الطرّماح فيه بعنفٍ وقوة ، وأثبت قدرة قال عنها المفضل : ((أذا ركب الطرّماح الهجاء فكانما يوحى اليه)) [٤٥] . وكان له بيته المشهور الذي لهج الناس به ، وذاع في شرق البلاد وعرضها ، وهو [٤٦] :

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت

ماذاك الا لتمكنه فيه ، واستجابة نفسه لدواعيه وأسبابه .

لقد هجا الطرّماح القبائل المناوئة لقومه ، مثل قبائل تميم وقيس وضبّة وعكل والتيم وأسد ويشكر وزيد مناة ودارم ونهشل وبني سعد هجاءً لاذعاً ، ماترك لها أديماً صحيحاً ، ومعرّضاً بها أشنع تعريض ، مُسْتقصياً ضروب نشاطها وتصرفاتها ، وعلاقاتها بالقبائل الأخرى في السلم والحرب ، ومتحدثاً عن سلوكها الديني وطبيعة التزامها به ، مع الاعتصام بعفة اللفظ – في اكثر الأحيان – ولطف المعنى ، وروعة التصوير .

اعتمد في هذا الهجاء – ولاسيّما في هجاء تميم – على السخرية المؤثرة ، التي أحسن رسمها وعرضها بأسلوب شعري أخاذ ، وقد بلغ من كلفه بهذا اللون من الهجاء ، وكثرة اعتماده عليه ، أن أحال المعاني السائدة الى صور ساخرة مؤثرة ، تفوق المعاني المجردة في عمق الأداء ، وتربو عليها في قوة التأثير وتحقيق الغاية من الهجاء ، فمن ذلك قوله في تميم [٤٧] :-

تميمٌ بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت
فلو أنّ برغوثـًا يزفق مسلكه إذاً نهلت منه تميمٌ ، وعّلت
ولو أن برغوثاً على ظهر قملةٍ يكرُّ على صفي تميمٍ لوّلت
ولو جمعت يوماً تميمٌ جُموعها على ذرة معقولة لاستقلت
ولو أن العنكبوت بنت لها مظلتها يوم الندى لأكنت

لقد حمل الطرّماح على تميم ، ورأى أنْ يهجوها الهجاء المؤثر الذي لايبْرج أديمها ، ولايغادر رجالها ونساءها ، فنثر من المعاني اللؤم والجبن والقلة والضعف ، فاستخدمها أسوة بغيره ، ولكن عرضها بأسلوب جديد ، وأضفى عليها حيوية ، نقلها فيه من معناها المتعارف الى معنى جديد مثير ، حين آستعان بالصور المتعددة والمتحركة ، فبدت في مظهر قشيب ، وأدت دورها المطلوب أداءً موفقاً ، خدمت الغرض خدمة رائعة .

طعن قبيلة تميم بصفة اللؤم ، وعقد اتفاقاً وثيقاً بين هذه الصفة وهذه القبيلة ، فذكر ان للؤم طرقاً تسلك ، فتألفها القبائل أو تتحاشاها ، وتمر بها أو تتحاماها ، وأن قبيلة تميم قد سلكت هذه الطرق فألفتها ، ومرّت بها فاكثرت من المرور ، حتى خبرتها وعرفتها معرفة فاقت بها معرفة القطا طرق الصحراء ، ثم هناك للمكارم طرق ، تسلك هي الأخرى ، فتطرقها القبائل وتكثر من المرور بها ، حتى تألفها فلا تضل فيها ، فاذا ما سلكتها تميم

ضلت فيها ، وتخبطت ، لأنها لم تألف مسلكها ، ولم تهتد الى معالمها ، بعد أن قضت حياتها لاتعرف غير طرق اللؤم .

انظر الى هذا التقابل البديع بين اللؤم والمكارم ، وقف عند السبل التي تقود اليهما وتنتهي عندهما ، ثم لاحظ أي القبائل تمر بهذه السبل لتقصد احدى الصنفتين تجدْ قبيلة تميم تختار طرق اللؤم ، وتيمم وجهْها صوْبها ، من غير أن تسأل عن سبل جديدة تقود الى صفةٍ اخرى ، وربما لم نكلف نفسها عناء البحث ، خشية أن تضل فيها وتتخبط في مسالكها فلا تهتدي الى طرق اللؤم التي أحبتها وآثرتها على سواها .

وطعن هذه القبيلة بصفة الجبن ، فذكر أن برغوثاً لو امتطى قملة وكرّ بها على صفي تميم لوّلت هاربة تتعثر بأذيالها .

فيالها من صورة اجتمعت فيها القلة القليلة مع الكثرة الكثيرة ، والتقى فيها الاستعداد والتهيؤ للقتال ، ثم ظهرت في أعقابها النتيجة الغريبة النادرة ، فهذا البرغوث الضئيل لم يجد مطية يركبها للقتال سوى هذه القملة الضئيلة التي تناسبه في الحجم وتستجيب له وتنصاع لأمره عند احتدام الطعان ، عندما عقد العزم على القتال ، وخوض غمرات الوغى ، وهذه تميم الوافرة العدد ، لم تجد سبيلاً سوى الاستعداد ، وحشد الطاقات وترتيب الصفوف ، واتخاذ أهبة القتال ، ثم كان اللقاء بين الفريقين ، بين البرغوث الذي أزمع قتال عدوّه بمفرده ، ولو دعا اليه البراغيث للبّتْ دعوته ونهضت معه طائعة ، ولكن آثر اللقاء وحده ، إيماناً منه بمقدرته ، وفائق شجاعته ومقدرته في مثل هذه المواقف ، بعد أن أتخذ القملة مطية ذلولاً له ، وبين تميم التي دُفعت الى الحرب دفعاً ، فحملت نفسها عليها حمْلاً ، ورأت ألاّ مناص من تقسيم جموعها قسمين ، التزاماً بقواعد القتال وفنون التعبئة ، ولو انتهى الى علمها أن الترتيب المتبع هو تقسيم الجموع الى خمسة أقسام ، هي القلب والميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة ، لا تخذته في تلك الساعة الحرجة ، خشية ضراوة القتال واستمرار الحرب ، فلما التقى الجمعان فرت تميم بصفيّها ، وولّت أدبارها ، وتركت البرغوث بتتبع فلولها ، ويضرب أدبارها .

ثم هناك صفات أخرى ، من القلة والضعف والضآلة ، اختار لكل صفةٍ منها صورة تلائمها ، وتفصح عن المراد فيها ، فالقلة اختار لها صورة اليربوع الذي سلخ جلده واتخذه زقاً ، حتى أقبلت تميم نحوه ، وجعلت تنهل وتعل ، ومازال فيه من الماء مايكيفها لو رغبت في المزيد ، والضعف طلب لها صورة النملة الصغيرة المستقرة في معقلها ، وقد واجهت جموع تميم ، وهي في مكانها ، من غير أن تجشم نفسها عناء الخروج اليها

ومواجهتها ، ثم الضألة رسم لها صورة أم العنكبوت التي بنت لها مظلة يوم الندى ففزعت اليها تميم ، وزاحمتها في مثواها .

لقد اجتمعت هذه الصفات كلها في تميم ، فكانت لها مثل المخازي الظاهرة الجاثمة التي لايمكن أن تبرحها أو تغيب عنها ، لأنها منمكنة فيها .

لقد ترك هذا الهجاء ، ولاسيّما تلك الصور ، أثره القويّ في تميم ، وجرّ الأذى الى حفيد الطرّماح ، أمان بن صمْصام ، إذ أقصاه ابن الأغلب عن عمله ، عندما صار أمرُ إفريقية اليه ، لهجاء جدّه الطرماح قومه بني تميم [٤٨] .

كما شردت بعض الأبيات في الناس ، من مثل قوله :-

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت

وعدّ أهجى بيت قيل في ذلك [٤٩] :

وأستعان ثانية بهذه الصور في هجاء تميم مرة اخرى ، فقال : [٥٠]

فلو كان يبكي القبرُ من لؤم حشره بكت من تميم كلّ يوم قبورها

أليست تميمٌ يوم قتل عدّيها تحيّر أعماها ، وتاه بصيُرها

ودانت تميمٌ للعتيك ، وأسلمت تميمٌ ، وأودى خطرها وزئيرُها

فتلقى تميماً ، شيخها عند بابه ذليلاً ، ويُغذْى بالهوان صغيرها

تميم تمنى الحرب مالم تلاقها وهم قصف العيدان في الحرب خورُها

ألستم بني الحرب العوان زعمتمُ ومن غيركم فتيانُها وصقورها

فهّلا منعتم جاركم وأميركم بأسيافكم ، والخيل تدمى نحورُها

استخدم الطرّماح هذه المرة صوراً جامدة للتعبير عن مراده ، ولكن استطاع أن يحركها ويبعث فيها الحياة ، ويدفعها الى الاعراب عما تحس وتعاني من المشاعر المتباينة ، كما أثار فيها التحدي الى النزال والمواجهة شأن القبائل المعتدة برجالها وصولاتهم .

إن القبور تستقبل الظاعنين من كل لون ونحلة ، وتطبق عليهم أجفانها ، من غير أن تضيق بهم ، أو تتبرم منهم ، وأنى لها أن تضيق أو تتبرم ، ومهمتها الاستقبال والاطباق ، ماخلا قبور تميم ، فانها لو استطاعت البكاء ، وأعطيت الاعراب عن حالها من وجود هؤلاء الموتى لبكت كلّ يوم ، إذ لم ترزق أناساً ذوي سجايا رفيعة أو مآثر ترطيبة، وانما ابتليت بأدنى الخلق طباعاً وأخلاقاً ، واكثرهم هناتٍ ومساويء ، فهم لؤماء ، فلماذا لاتبكي حظها العاثر كل يوم ؟

وصورة الذل البادية على أعظم رجلين في هذه القبيلة ، على هذا الشيخ الذي قبع عند الباب ذليلاً مختقراً ، وعلى هذا الصغير الذي سقي لبن الذل لينشأ عليه ، فيتخذه طبيعة وتكويناً .

انظر الى هذه الصورة كم هي موحية مؤثرة ، وتصوّر أبعادها من خلال تصوير الطرّماح لها ، تقف على الحقيقة ، وهي ، ان هذه القبيلة المنطوية على نفسها ، قد ابتعدت عن الناس واتخذت لها مكاناً قصّياً ، لتدبّر شؤونها وتقوم على تنشئة كبارها وصغارها على أخص أخلاقها وصفاتها ، فاذا شيخها الكبير المستقر عند الباب قد اكتملت تربيته ، وبلغ حاجته من الاعداد والتوجيه ، وجلس ينتظر أضرابه من الشيوخ ممن بلغوا الغاية في التربية والتكوين ، واذا صغيرها يغذى بالهوان كي يصل الى مقام الشيوخ ، وعند ذاك يلتقي الكبارُ والصغار لقاءً لا شائبة فيه ولا تباين في الاعداد والتوجيه .

وبهذا اصبحت صفة الذل أصيلة ومتوارثة في تميم ، أصيلة في هذا الشيخ الذي قطع اخطر مراحل عمره ، ومتوارثة في هذا الصغير الذي مازال عند عتبة الحياة .

والجبن ، تتمنى تميم الحرب ، إمّا لأنها تريد أن تجبّ ماضيها الملطخ بالذل والهوان ، واما لأنها تريد ان تظهر بين القبائل ذات صولة ونفوذ ، واعتداد وقوة ، ليخشى بأسها ، ويرهب جانبها ، ولكن كيف تتمنى الحرب على ان لا تصلى بنارها ؟. وهل التمني وحده يحقق لها كل ماتطمح اليه ؟ إنّ التمني أسلوب الضعفاء العاجزين الذين يتخذونه مطية سهلة الركوب الى بلوغ مآربهم واطماعهم في ميدان التصور والخيال ، ولهذا فتميم ضعيفة عاجزة ، تهربُ من الواقع البغيض الى دنيا الخيال الرحبة، لتعيش بحرية وأمان ، وتبلغ ماتبغي هناك ، على أن لاتفترب من هذا الواقع ، ثم أوضح المعنى الآخر ((وهم قصف العيدان في الحرب خورُها)) ، طبيعة هذه القبيلة ، ولماذا تفر من هذا الواقع لتمتطي الخيال وتصل الى ماتريد من تحقيق البطولات والأمجاد .

لقد عبّر الطرماح عن صفة الجبن تعبيراً قوياً ، اعطى هذه الصفة معنى حياً ، رفعها به من الابتذال الى الجد والطرافة ، فقبيلة تميم حين تتمنى ، لآنها تشعر بالرغبة الهادئة أو القوية الى الحرب ، لكي تجرب حظها ، وتسهم فيها أسوة بالقبائل التي خلفت دوّياً ، ولكنها تشعر الى جانب ذلك كله بالضعف الذي يحولُ بينها وبين الفعل الصادق والعزم الأكيد . فالقبيلة التي تبغي الحرب لا تتمناها ، بل تسعى اليها ، ثم تلهبُ نارها ، وتلقي بنفسها فيها ، اعلاناً عن الارادة والعزم والقوة ، اما التمني فهو العجز الذي لا يجد له موضعاً مرموقاً في الواقع فيهربُ منه الى الخيال الفسيح .

والى جانب هذا التمني هناك المحال البعيد في صورة " مالم تلاقها " ، فبعد أنْ عرفنا أنّ التمني مظهر العجز فكيف نقرن به محالاً لتصل من ورائهما الى واقع مغرق في الواقعية ، الا وهو الحرب ؟ لاريبْ أن الاثنين – التمني والمحال – قد اتفقا على الهرب من هذا الواقع ، بعد أن افْصحا عن حقيقة ثابتة ، هي حقيقة الجبن المتمكنة من تميم .

إن الجبن راسخ في قبيلة تميم ، وانصعُ برهان على ذلك سكوتها عما حل بعديّ بن أرطأة الفزاري ، والى البصرة ، إذا قتيد الى السجن ، ثم قتل ، من غير ان تغضب له، أو تحميه من أعدائه ، فان تجاهلت وحدة الدماء فما ينبغي لها ان تتجاهل المعروف الذي انهمر على المصر كله ، من جهوده ومساعيه ، ولكن يبدو أن الحرب عند تميم حديث تثرثر به الألسنة ، وليس فعلاً صادقاً يُنبيء عن بطولةٍ واستعداد ، وشجاعة تتباهى بها في المواقف والملمات .

وبقيت هذه الصور طابع هجاء الطرّماح لتميم ، ثم ازدادت حين تجاوز هذه القبيلة الى قبائل اخرى ، وتنوعّت مواضيعها ، فشملت بعض الألوان الجديدة ، وبدت في مظهر لاءم هذه القبائل ، وضراوة الصراع معها ، من صنبّة وأسد ودارم ، فقال[٥١] :-

لاعزّ نصرُ آمريء أضحى له فرسٌ ... على تميم يريدُ النصر من أحد
إذا دعا بشعار الأزد نفرّهم ... كما ينفر صوت الليث بالنقد
لو حان ورْد تميم ثم قيل لها : ... حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
لو أنزل الله وحياً أن يعذّبها ... إن لم تعد لقتال الأزد ، لم تعدُ
وذالك أنّ تميماً غادرت سلماً ... للأزد كلّ كعاب وعثة اللّبد
مثل المهاة اذا ابتزّت مجاسدها ... بغير مهر أصابوها ولاصعد
حلّت محارمها للازد ضاحية ... ولم تعرج على مالٍ ولا ولد
لا تأمنن تميماً على جسدٍ ... قد مات مالم تزايلْ أعظم الجسد
لايحسب القينْ أنّ العاب بغسله ... عن قومه معجهُ بالزوّر والفند
والقينُ إن يلق من أيامه عنتاً ... بسقط به الأمر في مُسْتحكم العقد
ودارمٌ قد قذفنا منهم مائةً ... في جاحم النار اذ ينزون في الخدد
ينزون بالشتوي منها ، ويوقدها ... عمروٌ ، ولولا شحوم القوم لم تقد
أبيت ضبة تهجوني لأهجوها ؟ ... أفٍ لضبة من مولى ومن عضد
ياضبّ ، إن تكفري أيام نعمتنا ... فقد كفرت أيادي أنعم تلد
يوماً أوارة من أيام نعمتنا ... ويوم سلمى ، يد ياضبّ بعد يد

وكل لؤم يبيدُ الدهرُ أثلته ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد
لا ينفع الأسدي الدهر مطعمه في نفسه ، وله فضلٌ على أحد
قومٌ أقام بدار الذل أولهم كما أقامت عليه جذمة الوتد
وآسال فقيرة بالمروث هل شهدت شوط الحطيئة بين الكسر والنضد؟
أو كان في غالب شعر فيشبهه شعر ابنه ، فينال الشعر من صدد
جاءت به نطفه من شرماء صرى سبقت الى شروادٍ شق في بلد
فيم تقول تميمٌ ؟ يابن فينهم وقد صدقتُ ومأأنْ قلت عنْ فندِ
ومن يرم طيئاً يوماً اذا زخرت ارفادها يتوّعرْ وهو في الجدد

أمسك بخناق تميم ، وكأنّ هذه القبيلة صارت عنده نقطة الايحاء وعنصر الاجادة في الهجاء ، فما ان يذكرها حتى تتثال عليه المعاني والصور انثيالاً .

وصم قبيلة تميم بالجبن ، فذكر أنّ آمرءاً واحداً يستطيع ان يظهر عليها ظهوراً مبيناً، من غير أنْ يستعين بأحدٍ من الناس ، فاذا دعا بشعار الأزد ولّت مذعورة وحائفة ، حتى انها تحجمُ عن ورود حوض الرسول (ε) إذا قال لها إن الأزد عليه قائمة ، فتتحمل عذاب الله وتصبرُ عليه ولاتقاتل الأزد وان أمرها الله بالقتال ودعاها اليه .

فهذه هي تميم جبن عجيب ، وتمرد غريب ، وخوف لايشبهه خوف من الأزد ، فلا احد يستطيع أن يلوذ بجماهم ، ويعتمد عليهم ، فسعار الأزد ينفرهم فمابالك اذا طلعوا عليهم وأزمعوا قتالهم ؟ انهم – ولاريب – سيفرون منهم ، ويتجرعون العطش ، والتمرد على الله ، خوفاً من الأزد وفرقاً ، ويدعون نساءهم لهم سبيّات ، فالجبن سلبهم الغيرة ، ومرّغهم التراب ، وركبهم الهوان في أشد المواطن دعوة الى القتال والموت .

أما القبيلتان ضّبة وأسد ، فقد هجا الأول باللؤم الراسخ الثابت الذي لاينقص ولا يبيد، مع أن كل لؤم أباده الدهر وعفّا على آثاره ، إلاّ لؤم ضبه . وهجا الثانية بالحقارة والضآلة المتناهية ، حتى أنه لو يخفى على الرحمن خافية من خلقه لخفيت عنه هذه القبيلة ، مع أنّه – جلّ شأنه – لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهي ذليلة خانعة ذل الوتد في الارض ، وتهان وتصبر ، وتضرب ، كما يضرب الوتد في الأرض فيمسك بموضعه ويتشبت به ويزداد تشبتاً فيغور في الاعماق ، فلا يئن ولايشكو ولايتمرد ولا

ينتفض من الأرض ، فتشبت الوتدٍ جبلة فيه فهو جامد ، ولكن ماسر هذه القبيلة التي ضارعته في الجمود ، وربما أربت عليه في انعدام الاحساس والشعور .

ثم التفت الى الفرزدق ، فنهش عرضه ، وازدرى شعره ، وشكّ في أصله ، وحقّر من مكانة قومه ، يوم اوارة ، عندما صاروا طعاماً لنار عمرو بن هند .

وبعد الهجاء هناك الفخر بطيء ، ومالها من سامق المكانة والقوة .

إنّ الطرمّاح قد اكثر من نعت قبيلة تميم بالجبن ، و صار كالحقيقة الراسخة في كيان هذه القبيلة ، حتى أوشكت هذه الصفة أنْ تفقد مدلولها ، أو توهن من تأثيرها في النفس ، جراء هذا التكرار ، ومَنْ يدري فربّما أدرك مغبة هذا التكرار في سقوط هذه الصفة ، فاحتال للأمر ، فاهتدى الى صورة ثانية أعادت الى هذا المعنى المألوف بهجته ورواءه ، وردّت اليه روحه وتأثيره ، عندما ذكر أن امرءاً واحداً يملك السلاح يستطيع أنْ يواجه هذه القبيلة ويردّها على أعقابها ، وينتصر عليها انتصاراً مبيناً ، من ان يستعين بأحد عليها ، لقوته القاهرة ، ولضعفها المخزي ، فاذا مارفع شعار الأزد ولّت هاربة من غير قتال .

تأمل هذه الصورة ، وتدبّر أثرها ، تر الطرمّاح قد جاء بشيء جديد ، ففي قوله : ((لاعزّ نصرُ آمريء)) بيان أن النصر هينٌ يسير ، بل متوقع من دون عناء أو نصب لايكلف صاحبة سوى إعلان الحرب على تميم ، وقطف ثمار النصر ناضجة ، لا أحد يُعنيه ويشد أزره ، ولا أحد يُحمّسه ويثير حميته ، وانما شمرّ عن ساعديه للقتال وحده ، ورضي بالعاقبة سواء أكانت نصراً أم هزيمة ، حلوة كانت أمْ مرة ، وفي قوله ((تقرّهم)) برهان ثانٍ على النصر ، ووجه جديد لصفة الجبن الراسخة في اغوار هذه القبيلة ،ولما دعا بشعار الأزد فرّتْ ولم تباشر قتالاً ، وانتشرت في الأرض مذعورة من قبيلة الأزد ، وأفعالها ، وقد تجرعت على أيدي رجالها كؤوس الصاب والعلقم ، وهطلت عليها مزن المحن والبلاء .

وجاءت الى قبيلة ضبّة ، فوصمها باللؤم ، وان هذا اللؤم فيها ثابت راسخ ، لايتزعزع ، ولاينقص ولايبيد على مر العصور والأزمان ، ووازن بين لؤم ضبّة وبين كل لؤم وجد على الأرض ، فاذا لؤم هذه القبيلة باق ، وكل لؤم قد أباد الدهر أصله ، ومحا الآثار الدالة عليه ، فلؤم هذه القبيلة أصيل معرق في الأصالة ، نشأ معها منذ البداية ، وواكبها مواكبة حميمة ، فلا سبيل الى التخلص منه ، والانعتاق من ربقته .

أما قبيلة أسد فنعتها بالذل ، وذكر أنّ للذل داراً أقام فيها اولهم ، ودعا بقية الأبناء والأتباع الى الثواء مابقيت دار للذل ، وقابل بدوره بين هذه الاقامة وبين اقامة جذمة الوتد

في الأرض ، عندما يستغنى عن هذه الجذمة ولايحتاج اليها ، فذل أسد ثابت ثبات جذمة الوتد .

واستعان الطرمّاح ببعض الألوان الجديدة ، التي منحت هجاءه روحاً وأثراً ، فهو حين هجا قبيلة تميم ذكر وحي الله لنبيّه الكريم ، من دعوة تميم الى قتال الأزد ، وما ينتظرها من العذاب إنْ تمردّت وأحجمت من القتال ، ولكن تميماً واجهت الدعوة بالتمرد والعصيان خشية من قتال الأزد ، مع علمها بصدق وعيد الله ، ويقينها مغبة الخروج على أوامره ، فتميمٌ تخشى الأزد اكثر مما تخشى الله ، والأزد فيها يقينها أشدّ بطشاً من الله وأشد تنكيلاً ، ولهذا استجابت لسطان الخوف ولم تستجب لأمر الله .

فنحن حيال مشهد ذي مواقف ثلاثة ، موقف هو هذا الوحي الهابط من السماء الى رسول الله ، بدعوة تميم الى قتال الأزد ، وموقف هو هذا العذاب الذي ينتظر تميماً إن أحجمت عن القتال وتمردّت على الأمر ، ثم موقف هو هذه المجاهرة بالعصيان واعلان التمرد ورفض قتال الأزد .

كما نرى القوة في موقف الله تعالى وتميم في آن معاً ، فالطرمّاح حين قال : ((لو أنزل الله وحيْاً أن يعذبها ، إن لم تعد لقتال الأزد ، تستشعر الغضب الالهيّ والأمر بالامتثال والطاعة ، ونحس العقاب الصارم عند الرفض والعصيان .

وقال : ((لم تعد)) نواجه الانكار لهذا الغضب ، والتمرد على هذه الدعوة ، خوفاً من الأزد ، وخشية من سطوة هذه القبيلة العاتية ، التي لاترقى اليها سطوة الله ، في تقديرها وحكمها .

وللطرمّاح اشارات يسيرة الى بعض المعاني الدينية ، مثل قوله في تميم [٥٢] :-

فمالقيت قتلى تميم شهادة ولا صَبَرتْ للحرب حين آشمعّلت

ذبحنا فسّمينا فحلّ ذبيحنا وماذبحت يوماً تميمٌ فسمّت

افاضت الى البيت الحرام بحجةٍ فلما أتته نافقت ، وتخلّت

وهذه الاشارات عارضة لاترقى الى المعاني المتداولة والصور الكثيرة المتنوعة .

واستعان بالقرآن الكريم في هجاء بني أسد ، حين قال [٥٣] :-

لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه حفيت عنه بنو أسد

أشار في ذلك الى قوله تعالى : ((إنّ الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء)) [٥٤] ، أراد أنه لو خفي على الله تعالى شيء – وهذا محال – لخفيت عنه بنو أسد ، تعبيراً عن ضآلة هذه القبيلة .

لقد استوعب روح النص القرآني لدعم موقفه ، فلم يورده كما ورد في القرآن ، ولم يعسر عليه استيعابه وتمثله ، بل سهل وسلس ، فعرضه في صورة جميلة ومؤثرة .

كما استعان ببعض آثار الرسول (ε) في هجاء تميم[٥٥] :

لوحان ورد تميم ، ثم قيل لها : حوض الرسول عليه الأزد لم ترد

هل أراد الطرماح بحوض الرسول مجرد حوض اعده للناس والسابلة ، ام أراد حوض الكوثر الذي خصّ الله تعالى نبيّه الكريم به يوم القيامة ؟

فان ابتغى المعنى الأول فمراده أنّ الرسول قد اقام للناس حوضاً أسوة بالقبائل التي تقيم الأحواض ليردها ابناؤها وابلها ، ومنح الأزد حق الاشراف عليه وتعهده بالرعاية ، فاذا جاء دور تميم لتتزود منه وعلمت أن الأزد عليه قائمة قفلت راجعة ، مؤثرة حرارة الظمأ على برودة الريّ ، ومفضلة غنيمة الاباب على شرف الوقوف على هذا الحوض، وان كان المعنى الثاني فهو حوض الكوثر ، وقد شرف الرسول الأزد حين أناط اليهم مهمة الاشراف على هذا الحوض وتقديم الماء للقبائل والواردين من كل لون ونحله.

إن هذا القول يثير معنى مهيباً وجليلاً في الوقت نفسه ، فهناك وقت معلوم لورود هذا الحوض ، وهناك التزام وترتيب تخضعان لهما القبائل ، ومنها قبيلة تميم ، فلا مناص لكل قبيلة من المحافظة على الوقت والتقيد بالالتزام ومراعاة الترتيب ، هذا الى رضا الرسول عنها ، والاّ اقصيت عن الحوض ، مهما كان شأنها وعلو كعبها .

وهو – ولاريب- منظر مهيب ، ترى فيه القبائل تتقاطر على الحوض ، ومنها قبيلة تميم ، وقد مسّها الظمأ ، وأرهقها الانتظار ، حين فرض عليها التقيد بالوقت والترتيب . ويعظم المنظر مهابة ، حين ترى قبيلة الأزد في الصدارة تتولى السقاية ، وتميم تفرق منها فرقاً شديداً ، فتؤوب خائبة منفضة عائدة بالظمأ الشديد ، وسقوط المكانة وهوانها بين القبائل .

ثم ولج ميدان التاريخ ، وركض فيه حتى الجاهلية ، ليظهر مآثر قومه وبطولاتهم ، وينشر مساويء أعدائه ومخازيهم ، فأشار الى يوم " اوارة " ومالحق بدارم – فرع من تميم

– في ذلك اليوم ، حين ألقى عمرو بن هند ، ملك الحيرة ، مئة من رجالهم في النار حتى أصبحت تتقدمن شحومهم ، وهم يثبون فيها ابتغاء النجاة[٥٦] .

ذكر الطرمّاح هذه الحادثة لأن رجالاً من طيء كان لهم دور فيها ، انتقاماً من تميم التي اثارت عليهم عمرو بن المنذر حتى غزاهم ، عندما آب منقضاً من اليمامة فقال[٥٧]:

ودارم قد قذفنا منهم مئة في جاحم النار إذ ينزون في الخدد
ينزون بالمشتوي منها ، ويوقدها عمرو ، ولولا شحوم القوم لم تقد
فاسال زرارة والمأموم مافعلت قتلى أوارة من زغوان ، والكدد

فهذه اشارة الطرّماح للحادثة ، وهي قائمة على الهجاء اكثر من الفخر ، إذ ابتغى النيل من الدارميين ، ومالقوا من الهوان والحرق ، مع الاشادة بدور قبيلته طيء ، واشتراكها مع عمرو بن هند في مطاردة أعدائه ، والتشفي بهم ، جزاء ماكان منهم في سالف أيامهم.

وذهب مع التاريخ بعيداً ، فذكر أنّ الدّجال إذا خرج يطلب دينه نهضت اليه تميم والتفت حوله[٥٨] : -

ولو خرج الدّجال ينشدُ ذمةً لزافتْ تميمٌ حوله ، وآحزالّت

وهجا عدداً من القبائل ، مثل نهشل ويشكر وعكل والتيم وزيد مناة [٥٩] .

أما الوقائع التاريخية القريبة والمعاصرة فقد ذكر طرفاً منها ، ولاسيّما التي ترفده في الهجاء ، وتكون مادة له ، وهذا ماكان منه حين صبّ حقده على الفرزدق وتطرق الى الأحداث التي تنال من المهجو وقومه[٦٠] :-

أقرّتْ تميم لابن دحمة حكمه وكانت اذا سميت هواناً أقرّت
وكانت تميمٌ وسط قحطان إذ سمت كمقذوفة في البحر ليلاً فضلّت
ونجاك من أزد العراق كتائبٌ لقحطان أهل الشام لما آستهلّت

إنّ قبيلة تميم في واقعها المشين ، وذلها الملازم لها ، وخضوعها الدائم للقوي القاهر قد استكانت ليزيد بن المهلب مدة ولايته عليها ، وهذا شانها أنْ تسام الخسف ، وترضى بالذل والهوان ، فقد تضاءلت لقحطان وتوارت ، فرقاً من سطوتها ونفوذها ، فبدت كالسفينة الضالة التي تحكمت فيها الأمواج في الليل البهيم .

واستمر يخاطبه :-

فأين تميمٌ يوم تخطر بالقنا كتائب منّا أظعنت وأحلّت

كتائبُ من قحطان بالعقر أوقعتْ وقائع فيها أعظمت وأجلّت

فأين تميم يوم خطرت كتائب قحطان بالقنا ؟ واين هم حين أظعنت الكتائب وحين حلت؟ إنّ الكتائب من قحطان هي التي أوقعت الوقائع العظيمة الجليلة في موقعة العقر ، وهي التي كان لها الفعل الصادق في تلك المعركة الضاريه .

ولكن أي قسمي قحطان أراد الطرّماح ؟ هل أراد قحطان العراق التي خاضت مع يزيد بن المهلب لظى معركة العقر ، أم أراد قحطان الشام التي كانت مع الدولة الأموية؟ فان أراد قحطان العراق ليذكر دورها المجيد في هذه المعركة الضارية فقد خرج عن غايته السامية من ردّ الشبهة عن القوم في هذه المساهمة الظاهرة ، حتى لاتنصّب عليهم لعنة الخليفة يزيد بن عبد الملك ، ويهبط عليهم الأذى والعذاب . وان اراد قحطان الشام فقد طعن فؤاده بمديته ، بعد أنْ تم على يديها القضاء على هذه الثورة التي عقد الطرّماح عليها الآمال العريضة ، وقد نهضت معظم القبائل اليمانية مع مؤججها ، رغبة في الخلاص من السيطرة المضرية ، ولهفة الى السيادة والملك . ولكن – مما يبدو – أن الطرمّاح أراد قحطان الشام ، ليفخر بفعالها ، ويشيد بآثارها الناصعة في الحروب ، وبرجالها المُعْلمين اذا ماحمي الوطيس ، ليضع الى جانبها دور تميم المشين ، وفعلها المزري في هذه المعركة .

واستمر يخاطب الفرزدق :-

فخرت بيوم العقر شرقي بابل وقد جبنت فيه تميمٌ وقلّت

فخرت بيوم لم يكن لك فخره وقد نهلت منك الرّماح وعّلت

كفخر الاماء الرائحات عشية برقم حدوج الحيّ حين استقلت

فبالعقر قتلى من تميم خبيثةٍ وللمصر أخرى منهم ماأجنت

فمالقيت قتلى تميم شهادة ولا صبرت للحرب حين أشمعلّت

فما فحوى الفخر بيوم العقر ؟ هل كان لقبيلة تميم دور مشهود فيه ؟ أمْ هو الكذب نفسه؟ إن قبيلة تميم قد جبنت في هذا اليوم ، ونكصت على أعقابها ، فهذا الفخر كله كذب ، فقد نالت الرماح من الأعداء نيلاً بليغاً ، وكأنها نهلت وعلّت ، فهو مثل فخر الاماء الرائحات وقت العشية ، بحدوج الحيّ ، لاهمّ لهن سوى الخدمة ، ولاحيلة لهن الا تنفيذ مطالب سيداتهن من بنات السادة الكبراء ، فكل ماعند تميم هو الخبث والفساد ، سواء في معركة العقر أنْ في المصر ، ومن هلك من رجالها في ذلك اليوم كان كافراً ، لم ينل شهادة

المقاتل المسلم في القتال ، مع أن عادة هذه القبيلة المأثورة الفرار من القتال ، اذ آشتد سعيرُ الحرب واحتدم القتال .

إنّ الطرّماح في هذا الهجاء حاد الفكر ، نافذ البصيرة ، عميق الادارك ، لا تغرب عن ذهنه الحقائق التاريخية ، وطريقة استدراكها ، وبيان أسبابها إنْ كانت في غير صالح قومه ، ولاتغيب عنه أيضاً إن كانت في غير صالح عدّوه ، فيستغلها ويتخذها مادة طيبة للهجاء .

فالطرماح حين انقض على الفرزدق ، لم ينس نفسه ، ولم يغرق في لُجّة الهجاء الى أذقانه ، ولكنه كان يجول بطرفه في الأرجاء والنواحي ، ويتحسّس مواضع قدميه في الأرض الممتدة أمامه ، كي يأمن غوائل العدو ، وينجو من متاهات الطريق وعثراته ، مع علمه بأنّ لكل انسان هفواته التي قد تحسب عليه وتنتقص فيه ، وان لكل قبيلة زلاتها التي قد يقتنصها الأعداء فينفثوا سمومهم فيها ، ويسدّدوا سهامهم نحوها ، وقد حسب الطرماح لمثل هذه الهفوات والعثرات حساباً ، اذ ما التفت اليها الأعداء ، أو آستغلوها في هجائهم له ولقومه حين يستدعي الموقف الجواب .

كانت حادثة يزيد بن المهلب الأزديّ في البصرة سنة ١٠٢ من الهجرة ، من أعظم الهفوات ، بل من أخطر الأحداث أيام الطرماح ، وقد جرّتْ على قومه اليمانية الشر والأذى من الدولة ، وصبّت عليهم غضب الخليفة ونقمته ، وكانت ثورة عارمة ضد سلطان الخليفة يزيد بن عبد الملك ، اشتركت فيها معظم القبائل اليمانية في البصرة والكوفة ، حُباً في الخلاص من السيطرة المصرية ، وتطلعاً الى السيادة والحكم ، على غرار المضريين ، وقد اخفقت هذه الثورة ، وتمزق شمل القبائل اليمانية ، وضاع آل المهلب في زحمة الانتقام والحقد ، وعلا شأن الخليفة الأمويّ علواً مبيناً ، فتحدث الطرماح عن هذه الحادثة حديثاً قائماً على الحذر والتوجيه ، والعلة المقبولة لتصرف قومه، حتى لايوغر صدْر الدولة عليهم من جديد ، ولايفتح باباً للشعراء ينفذون منه الى طعنهم والايقاع بهم ، ويبعد نفسه عن مهمة الغضب لهم والدفاع عن قضاياهم ، فقال:-

ويفْتق جانينا ، ونرْتق فتقه ... اذا ما عظيمات الأمور أستجلت

فأن بك منا موقدوها فاننا ... بنا أخمدت نيرانها ، وأضمحلت

ملوك أصابتها ملوك بحقها ... ومابيع آجال لها إذ أطلت

كان المسوغ الذي اعتصم به لتصرف يزيد بن المهلب ، في أنّ يزيد هذا إنْ كان قد أوقد النار وأضراها بين الناس ، فاننا قد تداركنا الأمر سريعاً وأطفأنا النائرة ، ومحونا الآثار بأيدينا ، فان كان فقد فتق جانينا فقد رتقنا فتقه ، وأصلحنا ماأفسد ، من غير أن يتسع الفتق ، ويستشري الفساد . وكل ذلك حوفه على قومه ، مما قد ينالهم من مكروه ، أو يلحقهم الشر والأذى ، لقاء تصرف ابن المهلب ، هذا الى إخفاء عورات قومه ، ومواضع ضعفهم ، حتى لايستغلها الأعداءُ والساعون نحوهم بالخبث والوقيعه .

أما هفوات خصمه فكان الطرماح يختارها ظاهرة جلية ، يراها الناس عن قرب وعن بُعد ، وعلى حقيقتها هفوات لاتغتفر لفاعلها ، ولايُهْتدى الى مُسّوغ مقبول لحدوثها .

هذه الهفوة الظاهرة هي ردّة بعض العرب عن الاسلام في أول حلافة أبي بكر الصديق (τ) ، من امثال قيس وخندف ، وانسيافهم وراء سجاح ، وتأثرهم بأقوالها وشعوذتها، وقد سارت بهم الى اليمامة والتفت مسيلمة الكذاب وتزوجها ، وغدت عروساً مستقرة في خدرها أسوة بأمثالها من النساء المتزوجات .

فهذه هي سجاح ، نبيّة بني تميم ، كيف انتهت بها الحال ، واصبحت زوجاً لمسيلمة ، وتركت ماكانت تدعو اليه من أمر النبوة ، وخلّفت الأتباع والتصدي للأحداث :-

وهم دمغوا بالحق أيام خالد — شياطين أهل الشرك حتى آظمآنت
شياطين من قيس وخندف غرّها — من الله ماكانت سجاح تمنت
لعمري لقد سارت سجاح بقومها — فلما أتت عزّ اليمامة حلّت
فدارسها البكريّ حتى آستزلها — فأضحت عروساً فيهم قد تجلت
فتلك بنيّ الحنظليين أصبحت — مُضمخة في خدرها قد تظلّت

فهذه هي الحادثة التاريخية ، تناولها الطرماح فعبّر عنها تعبيراً التقت فيه الحقيقة بالفن الشعري على نحو رائع مؤثر .

لقد صور الطرماح الأتباع بأنهم شياطين أهل الشرك ، لعبت هذه المرأة بعقولهم ، وأثرت في عواطفهم ، فتابعوها وانحرفوا عن جادة الاسلام ، مغرورين بهذا السحر الانثوي ، ومدفوعين بهذه الآصرة التي تجمعهم بسجاح ، بعد أن طلقوا الاسلام ، وقطعوا الوشائج التي تربطهم به ، وسارت بهم حتى بلغت اليمامة وألفت عصا التطواف فيها ، مزهوة بهذه الدعوة التي تبنتها ، وفخورة بهؤلاء الاتباع الخاضعين لارادتها وسلطانها .

وصور سجاح بانها المرأة التي تستجيب لغرائزها ، وتخضع لطبيعتها التي فطرها الله عليها ، على الرغم من المهام الجسام التي تصدت لها ، ولكن تلاشت هذه المهام عند دعوة الغرائز ونداء الطبيعة البشرية ، فحين التقت مسيامة وساءلها وناقشها ، ثم غلبها وأفحمها ، حتى ذلت له وانقادت اليه ، ونزلت على حكمه ، ودعاها الى الزواج فلبت مسرعة ، واصبحت عروساً ، بعد أن كانت نبية ، تخترع الآيات ، وتستنبط الأحكام ، والقوم نعم مخطمة .

لقد سخر من هذه النبية التي طلقت النبوة الى الزواج ، ومن الاتباع المنساقين وراءها عن سذاجة وجهل صريح .

لقد كان الطرماح موفقاً أزاء توجيه فعل يزيد بن المهلب ، ذكياً في ذلك ، وكأن الحادثة لم تقع ولم تحدث على ثرى البصرة ، مادام كل شيء قد اخمد في حينه ، وأصلح في إبانه ، وماعلى الناس إلا ان يصدّقوا ، ويستريحوا الى هذا المسوغ .

لقد بلغت العصبية القبلية ذروتها عند الطرماح ، وأخذت منه جل اهتمامه حين وهب نفسه لقومه اليمانية ، وسخر وجوده لخدمة أغراضهم ومطالبهم ، وأعرض عن كل القيم والمعايير التي قد تثنيه عن مراده ، أوتقف حائلاً بينه وبين أداء مهمته ، وتلك هي صورة الاخلاص المطلق والتفاني في حبهم ، على وفق ماتدعو اليه هذه العصبية في العصر الأموي .

الهوامش

١. سورة الحجرات : الآية ١٣ .
٢. البيان والتبين : للجاحظ ج٢ من ٣٣.
٣. تاريخ الرسل والملوك : للطبري ج٥ ص٥٣٢ ؛ ومروج الذهب : للمسعودي ج٢ ص٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ج٣ ، ص٨٥ ؛ وتاريخ الدولة العربية : فلهوزن ص١٢٧ .
٤. مروج الذهب : ج٢ ، ص٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ج٣ ، ص٨٥ ؛ والأغاني : للأصفهاني : ج٢٠ ، ص٢٠٩ ، والامالي : للقالي ج١، ص٢٠٠.
٥. نقائض جرير والأخطل : لأبي تمام ص١ .
٦. تاريخ الرسل والملوك : ج٥ ، ص٥٣٣ .
٧. المصدر نفسه :ج٥ ص٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٢ ، ٥٣٤، ٥٣٧ ، ٥٤٠.

٨. أنساب الاشراف : للبلاذري ج٥ ، ص٣١٢ ؛ البيان والتبين ج٢ ص٨٩ ز ج٣ ص٢١٦ .
٩. تاريخ الاسلام السياسي : حسن ابراهيم حسن ج١ ، ص٣٣٧ .
١٠. تاريخ الرسل والملوك :ج٧ ص٢٦ ، ١٤٢-١٥٢ ، ١٤٧ .
١١. المصدر نفسه ج٣ ص٣٢١ .
١٢. الأخبار الطوال : للدينوري ص٣٣٦ .
١٣. العقد الفريد : لابن عبد ربه ج٣ ص٣٤٨ .
١٤. الديوان : ص٤٨ .
١٥. الديوان ١٥٨ .
١٦. الديوان : ص٢٥ ، ٢٦ .
١٧. الأغاني ج١٢ ،ص٣٥ ؛ ومعجم الادباء : للحموي ج٧ ص٥١ ؛ ومعجم الشعراء : للمرزباني ص١٤٨ .
١٨. الديوان : ص١٢ .
١٩. الأغاني : ج١٩ ، ص١٢٨ .
٢٠. الاصابه : للعسقلاني ج٣ ص٢٤٣.
٢١. الأغاني :ج١٢ ص٣٥ -٤٥ .
٢٢. البيان والتبين :ج١ ،ص٤٦.
٢٣. الشعر والشعراء : لابن قتيبة ج١ ص٤٨٢ .
٢٤. تاريخ الرسل والملوك : ج٦ ص٣٣٧ .
٢٥. المصدر نفسه : ج٦ ص٣٣٩ .
٢٦. المصدر نفسه : ج٥ ١١٠ -١١٣ .
٢٧. المصدر نفسه :ج٥ ، ٥٠٤ -٥٢٣ .
٢٨. المصدر نفسه : ج٦ ، ص٣٩٧ .
٢٩. المصدر نفسه : ج٦ ، ص٤٤٨ .
٣٠. المصدر نفسه : ج٦ ص ٥٨٠ .
٣١. المصدر نفسه : ج٦ ، ص٤٤٨.
٣٢. المصدر نفسه : ج٦ ، ص٥٨٦.
٣٣. المصدر نفسه : ج٦ ص٥٨١.

٣٤. المصدر نفسه : ج٦ ص٥٩٠ -٦٠٣ .
٣٥. الديوان : ص٢٨٢.
٣٦. المصدر نفسه : ص٥٦٤.
٣٧. المصدر نفسه : ص٢٥ .
٣٨. المصدر نفسه : ص٨ .
٣٩. المصدر نفسه : ص١٥٨ .
٤٠. المصدر نفسه : ص١٢ .
٤١. المصدر نفسه : ص١٥٨ .
٤٢. المصدر نفسه : ص٢٤٨ .
٤٣. الديوان : ص٢٥٢.
٤٤. المصدر نفسه : ص٢٥٢.
٤٥. الأغاني:ج٢ ص٤٣ .
٤٦. الديوان : ص٥٩ .
٤٧. الديوان : ص٥٩ .
٤٨. معجم الأدباء : ج٧ ، ص٥١.
٤٩. عيون الأخبار: لابن قتيبة ج٢ ص١٩٥ .
٥٠. الديوان : ص٢٥٤.
٥١. المصدر نفسه : ص١٦٠ .
٥٢. المصدر نفسه : ٥٨ ، ٦٥ .
٥٣. المصدر نفسه : ص١٦٦.
٥٤. سورة آل عمران : الآية ٥ .
٥٥. الديوان : ص١٦١.
٥٦. ايام العرب في الجاهلية : ص١٠٠.
٥٧. الديوان : ١٦٣ .
٥٨. المصدر نفسه : ص٥٦ .
٥٩. المصدر نفسه : ص٤٣٢ ، ٥٥٨ ، ٦٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ .
٦٠. المصدر نفسه : ص٥١.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .
٢. الأخبار الطوال : لأبي حنيفة الديتوريّ – تحقيق عبد المنعم عامر – ط الأولى ، مطبعة دار احياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٦٠م .
٣. الاصابة في تمييز الصحابه : لأحمد بن علي العسقلاني ، المعروف بابن حجر ، ط الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة – ١٣٢٨ هـ .
٤. الأغاني : لابي الفرج الاصبهاني ، مصور عن طبعة دار الكتب ، القاهرة – ١٩٦٣م .
٥. الأمالي : لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٥ .

٦. البيان والتبين : لابي عثمان بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٤٨ م .
٧. الشعر والشعراء : لابي قتيبة ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة دار المعارف بمصر – ١٩٦٦م .
٨. العقد الفريد : لابن عبد ربّه الأندلسي ، تحقيق احمد امين وآخرون ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة – ١٩٦٥م .
٩. انساب الأشراف : لأحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري ، مطبعة القدس – ١٩٣٦م .
١٠. أيام العرب في الجاهلية : لمحمد أبي الفضل ابراهيم وآخرون ، مطبعة الحلبي ، ط الأولى ، القاهرة – ١٩٤٢م .
١١. تاريخ الرسل والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ ، تحقيق محمد ابوة الفضل ابراهيم ، مطبعة دار المعالرف بمصر – ١٩٦٧م .
١٢. تاريخ الاسلام السياسي : حسن ابراهيم حسن ، مطبعة النهضة بمصر ، ط الخامسة -١٩٥٩م .
١٣. تاريخ الدولة العربية : يوليوس فلهوزن ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده ،مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر – ١٩٦٨م .
١٤. ديوان الطرّماح : تحقيق الدكتور عزة حسن ، مطبعة مديرية احياء التراث القديم ، دمشق – ١٩٦٨م .
١٥. شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد ، تحقيق محمد ابة الفضل ابراهيم ، ط الاولى ، مكتبة الحكيم ، دمشق – ٢٠٠٥م .
١٦. عيون الأخبار : لابن قتيبة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة – ١٩٣٠م.
١٧. مروج الذهب ومعادن الجوهر : لأبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي ، مطبعة دار الاندلس ، بيروت -١٩٨١م .
١٨. معجم الأدباء : لياقوت بن عبد الله الحمويّ ، مطبعة دار المأمون ، القاهرة – ١٩٣٦م .
١٩. معجم الشعراء : لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، تحقيق الدكتور سالم الكرنكوي ، مطبعة القدسي ، القاهرة – ١٣٥٤هـ .

٢٠. نقائض جرير والأخطل : لأبي تمام ، تحقيق الاب انطوان صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت – ١٩٢٢م .